﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٞ فَعَمُواْ وَصَمُّواْ ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٞ مِّنۡهُمۡۚ وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ ٧١﴾ [المائدة: 71]

❁ مُناسَبَةُ الآيَةِ لِمَا قَبْلَها:

لَمَّا ذكرَ اللهُ تعالى في الآية السَّابقة تكذيبَ اليهود لرُسُلِ اللهِ واستمرارِهم على قتلِهم؛ بيَّن في هذهِ الآيةِ سببَ فعلِهم الشَّنيعِ، وهو حسبانُهم ألَّا يقعوا في الفتنةِ؛ لانغمارِ نفوسِهم بالشَّهواتِ، ولو حسبوا؛ لارتدعوا، فعَمُوا عن إدراكِ الحقِّ، فلم يَصلوا إليه، وصمُّوا عن سماعِ الهادي، فلم يُنصتوا إليه[1].

انغمارُ النُّفوسِ في الشَّهواتِ سببٌ للعمى والصَّممِ عن الهدى

❁ شَرْحُ المُفْرَداتِ:

1) ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾: يأتي حسبَ بمعنى: الحساب، استعمال العدد، يقالُ: حَسَبْتُ المَالَ حَسْبًا: أَحْصَيْتُهُ عَدَدًا، ويقال: حَسَبْتُ أَحْسُبُ حِسَابًا وحُسْبَانًا، ويأتي بمعنى: الكفاية، كقولِه تعالى: ﴿حَسۡبُنَا ٱللَّهُ﴾ [آل عمران: 173]، أي: كافينا اللهُ، ومنه أَحْسَبْتُ الرَّجلَ: أَعْطَيْتُه مَا يَرْضَى حتَّى اكتفى، ويأتي الحَسَبُ بمعنى: الشَّرَفِ الثَّابتِ في الآباءِ، ويأتي حسِبَ يحسَبُ بمعنى: الحِسْبَان المقارب للظَّنِّ، والحِسْبَان: هو أن يحكمَ لأحد النَّقيضَيْنِ من غَير أن يُخْطِر الآخر ببَالِه، فيحسبه، ويعقِد عليه الإصبع، ويكون بعرض أن يعتريَهُ فيه شكٌّ، ويقارب ذلك الظَّنُّ، لكنَّ الظَّنَّ أنْ يُخطِر النَّقيضين ببالِه، فيغلِّب أحدَهما على الآخر، و﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ في الآية بالمعنى المقارب للظَّنِّ[2].

2) ﴿فِتۡنَةٞ﴾: يدلُّ المعنى المحوريُّ لـ(فَتَنَ): على إذابةِ مادَّةٍ باطنِ الشَّيءِ، وتحويلِها بإدخالِها نارًا حاميةً: كإذابةِ الذَّهبِ والفِضَّةِ،

(1) القونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/525، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/276.
(2) ابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات، وابن منظور، لسان العرب: (حسب).

ومِنَ الذَّوَبانِ والتَحَوُّلِ المَعْنَوِيَّيْن: الافتتانُ بالنِّساءِ والمالِ والأولادِ برقَّةِ القلبِ ونحوها، حتَّى يرتكبَ المحظورَ في سبيلِه، واستُعملَتِ الفِتنةُ في تمحيصِ حقيقةِ ما في القلوبِ بتعريضِها للشَّدائدِ، كَمَا يُصْهَرَ الذَّهبُ أو الفضَّةُ، فيمتازُ خَبَثُهما عن جَوْهَرِهما الخالصِ، ومن هذا المعنى أُطْلِقَتِ الفِتنة على مرجِ أحوالِ النَّاسِ واضْطِرَاب نظامهم من جرَّاء أضرارٍ ومصائبَ متواليَةٍ، فيمتَازُ الخالصُ مِن غيرِه، فكان معنى الابتلاء ملازمًا لِلْفِتْنَة، والفتْنَةُ هنا تَدُلُّ عَلَى إيقاعِ الابْتِلَاءِ أو التعريض له بالاخْتِبَارِ[1]، و﴿فِتْنَةٌ﴾ في الآيَةِ بِمَعْنَى: البَلاءِ[2].

3) ﴿فَعَمُواْ﴾: يدور معنى (عمي) على سَتْرٍ وَتَغْطِيَةٍ، ومِنْ ذَلِكَ الْعَمَى: وهو ذَهَابُ الْبَصَرِ مِنَ الْعَيْنَيْنِ كِلْتَيْهِمَا، وَالْفِعْلُ مِنْهُ: عَمِيَ يَعْمَى عَمًى، ولا يقع هذا النَّعْتُ على العَيْنِ الواحدة، واسْتُعِير العَمَى لِعَمَى البصيرةِ، بَل لم يُعَدَّ افتقادُ البَصَرِ في جَنْبِ افتقَادِ البَصِيرَةِ عَمًى، كما قال الله تعالى: ﴿فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى ٱلْأَبْصَٰرُ وَلَٰكِن تَعْمَى ٱلْقُلُوبُ ٱلَّتِى فِى ٱلصُّدُورِ ﴿٤٦﴾﴾ [الحج: 46]، فيقال: رجلٌ عَمٍ؛ إذا كان أعمى القلب، ومنهُ: قومٌ عَمون، وعلى عَمَى البصيرة جاء معنى الفِعْلِ هنا[3].

4) ﴿وَصَمُّواْ﴾: يدور معنى (صمم) على انسداد سُموم الشَّيء بالنَّفاذ فيها بغِلَظ واستواء ظاهره بذلك، ويلزمه اشتداده، ومنه عملُ صمَّام القارورة، والحجرُ الأصمُّ، ومِنْ ذَلِكَ الصَّمَمُ فِي الْأُذُنِ، فالصَّمم: ذهابُ السَّمعِ أو فُقدانُ حاسَّة السَّمع، وبالصَّمم يوصف من لا يُصغِي إلى الحقِّ، ولا يَقْبَلُه، وهو المرادُ في الآية[4].

❁ المَعْنَى الإِجْمَالِيُّ:

وظنَّ هؤلاء العصاةُ مِن بني إسرائيل ظنًّا قويًّا تمكَّن مِن نفوسهم ألَّا يكونَ من الله ابتلاء لَهُمْ وتمحيصٌ، وأنَّ الله لن يأخذَهم بالعذابِ، فلجُّوا في شهواتِهم، وانغمسُوا فيها، وعمُوا عنِ الهُدَى، فلم يُبصروه، وصَمُّوا عن سماعِ الحقِّ، فلم ينتفعوا به، فأنزلَ اللهُ بهم بأسَه، ثُمَّ تابوا، فتاب اللهُ عليهم، ثمَّ عَمِي كثيرٌ منهم، وصمُّوا، بعدما تبيَّنَ لهم الحقُّ، واللهُ بصيرٌ بأعمالِهم خيرِها وشرِّها، وسيجازيهم عليها.

(1) ابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (فتن).
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/327.
(3) الخليل، العين، وابن فارس، مقاييس اللغة، والراغب، المفردات: (عمي).
(4) الأزهري، تهذيب اللغة، وابن فارس، مقاييس اللغة، وجبل، المعجم الاشتقاقي: (صمم).

❁ الإيضاحُ اللُّغويُّ والبَلاغِيُّ:

نكتة التَّعبير بقوله: ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾:

خيبةُ ظنِّ مَنْ لم يتَّخذِ الأدلَّةَ الصَّحيحةَ لمعرفةِ الحقِّ

واو الجماعة في ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ عائدَةٌ إلى (بني إسرائيل) المذكورينَ في الآية السَّابقة، وعُبِّر بـ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾؛ لِلإشعار بظنِّهم الخائب، وأنَّهم لم يتَّخذوا الأدلَّةَ الصَّحيحة لمعرفة الحقِّ، ففي التَّعبير به توبيخٌ وتقريع لهم، وجاء بِصِيغَةِ الماضي لِلْقَطْعِ بوُقُوعِ الحسبَانِ مِنْهُم في مَا مَضَى، وأنَّه صار أمرًا ثابتًا لهم، مع أنَّ ما حسبوه - وهو وقوعُ الفِتْنَةِ - هو في الْمُسْتَقبل بدلالة (أنْ) المصدريَّة و(لا) النَّافية والفعل المضارع في قوله تعالى: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾، أو بدلالة (لا) النَّافية والفعل المضارع فقط، إذا كانت (أنْ) مخفَّفةً مِنَ الثَّقيلة على ما سيأتي بيانُهُ.

دلالة لفظ ﴿وَحَسِبُوٓاْ﴾ بين معنى التَّحقق والظَّنِّ:

قد يُنزَّلُ الحسبانُ مَنزلةَ العلمِ؛ لكمالِ قوَّتِه

يحتمل الحسبانُ أنْ يكونَ بمعنى: العلم، أو ما هو قريبٌ منه، بما يفيد الثَّباتَ والاستقرارَ، فنُزِّلَ الحسبانُ في صدورِهِمْ منزلةَ العلم لكمالِ قوَّتِه؛ لأنَّ القوم كانوا كالجَازِمِينَ بأنَّهم لا يقَعُون بسبب ذلك التَّكذيب والقتل في الفتنة والعذاب، ويَحْتَمِلُ أن يكون بمعنى: الظَّنِّ؛ لأنَّهم كانوا يَكْذِبُون، ويقتلون بسبب حفظ الجَاهِ والتَّبَع، فكانوا بقُلُوبِهِم عارِفِينَ بأنَّ ذلك خطأٌ ومعصيةٌ[1].

من بديع الإيجاز وقوعُ الجملة موقعَ مفعولَي (حَسِبَ):

التَّنبُّهُ مِنَ الفتن سببٌ لِلِارْتِدَاعِ عَنْهَا

لَمَّا كان (حَسِبَ) من الأفعال الَّتي تفْتَقِرُ إِلَى مَفْعُولَيْن؛ دلَّ على أنَّ جملةَ ﴿أَلَّا تَكُونَ فِتْنَةٌ﴾ قَامَت مقام مفعولَيْ حسبَ، والنُّكتة أنْ يكون مضمونُ الجملة بصورتِه المركَّبة هو الذي حسبوه، أي: حسبوا ألَّا تقعَ فتنةٌ، فأَوْمَأَ بِبَدِيع الإيجاز بذِكْرِ الحسبان وما تعلَّق به إلى أمرين:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/406.

أحدهما: الإيماءُ إلى سوءِ اعتقادِهم في جزاءِ الآخرة، وأنَّهم نَبَذُوا الفكرةَ فيه ظِهريًّا، وأنَّهم لا يراقبونَ اللَّه تعالَى في ارتكاب القبائحِ، وإلى سوءِ غفلتهم عن فتنة الدُّنيا، وأنَّهم ضالُّون في كلا الأمرين.

والآخَرُ: أنَّه لمَّا قال: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾؛ دلَّ على أنَّهم لو لم يحسبوا ذلك؛ لارْتَدَعُوا[1].

نكتة التَّعبير بـ(كان) التَّامَّة في قوله تعالى: ﴿وَحَسِبُوٓاْ أَلَّا تَكُونَ فِتۡنَةٌ﴾:

الـفـتنُ يَـعُـمُّ شُـؤْمُـهَـا، ولا يقتصِرُ ضرَرُهَا على صاحبِها

لمَّا كان معنى الآية: وحَسِبَ بنو إسرائيل أنَّه لا تُصيبهم من اللَّه فتنةٌ، أي: بلاءٌ وعذابٌ في الدُّنيا والآخرة، أو ألَّا تنزلَ بهم فتنةٌ[2]؛ كانَ التَّعبيرُ بـ﴿تَكُونَ﴾ التَّامَّةِ بمنزلَةِ العدول إلى التَّعميم، والمعنَى: وحسبوا ألَّا تقعَ فتنةٌ، أو ألَّا تحصلَ فتنةٌ؛ إيذانًا بأنَّ ما يفعلونَه فيه كلُّ الفتنَةِ، وأنَّ ضررَ الفِتْنَةِ لن يقتصِرَ على أصحابِهَا، بل تَعُمُّ.

دلالة التَّنكير في قوله تعالى: ﴿فِتۡنَةٌ﴾:

الـفـتنُ شأنُـها عظيمٌ وخطرها عميمٌ

لمَّا جاء ﴿فِتۡنَةٌ﴾ نكرةً في سياقِ النَّفي؛ دلَّ على تعظيم الفتنةِ وعمومِها؛ لِتَشْمَلَ أنواعَ الفتنِ، والمعنى: حَسِبُوا ألَّا تقعَ فِتَنٌ عَظِيمَةٌ وكثيرة؛ توبيخًا لهم على أفعالهم القبيحةِ.

توجيه القراءات في قوله: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾:

تنوُّع القراءات طريقٌ من طرُقِ توسيعِ المعانِي

قرأ ابنُ كثير ونافعٌ وعاصمٌ وابنُ عامر: ﴿أَلَّا تَكُونَ﴾ بفَتْحِ النُّون، وقرأ أبو عمرٍو وحمزةُ والكسائيُّ: ﴿أَلَّا تَكُونُ﴾ بضمِّ النُّون، ولم يختلفوا في رفعِ ﴿فِتۡنَةٌ﴾؛ لأنَّ ﴿تَكُونَ﴾ هنا هي التَّامَّة، ووجهُ قراءة النَّصب: أنْ تكونَ (أنْ) هي الخفيفةَ النَّاصبةَ للفعلِ المضارعِ، ويكونَ الحسبانُ بمعنى: الشَّكِّ والتَّردُّد، كما هو الأصل فيه، وَوَجْهُ قراءةِ الرَّفعِ أن تكونَ (أنْ) هي المخفَّفةَ من الثَّقيلةِ، وأصله:

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/406، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/276.

(2) الزمخشري، الكشاف: 1/663، والبيضاوي، أنوار التنزيل: 1/463، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/275.

(وحسبوا أنَّه لا تكونُ فتنةٌ)، فخفِّفت (أنَّ)، وحُذفَ ضمير الشَّأنِ - وهو اسمها - ولمَّا كانت (أنَّ) المشدَّدة تفيدُ التَّحقيقَ، ولا يدخل عليها إلَّا أفعالُ العِلْمِ واليقين؛ دلَّ على أنَّه نُزِّلَ حسبانُهم لقوَّتِه في صدورهم وتمكُّنِه في قلوبِهم منزلةَ العِلْمِ؛ ولذا دخلَ فعلُ الحسبانِ عليها؛ إشعارًا بأنَّ تمكُّنَ هذا الحسبانِ في قلوبِهم إنَّما هو بسبب غيِّهم وضلالِهم.

وإذا كانَ اللَّفظُ محتملًا لكلِّ واحدٍ من هذين المعنيين؛ لا جرمَ ظهرَ الوجهُ في صِحَّة كلِّ واحدٍ من هَاتَيْنِ القراءتين[1].

دلالة الفاء في قوله تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

تسابقُ النَّصارى إلى العمى عن الهداية والصَّمم عن سماع الحقِّ

لَمَّا كان ﴿وَصَمُّواْ﴾ معطوفًا على ﴿فَعَمُواْ﴾؛ دلَّ على أنَّ الفاء مرتِّبةٌ لِما قبلَها على الأمْرَيْنِ جميعًا، لِمَا تفيده الواوُ من التَّشريك في الحكم والاجتماع فيه، والمعنى: إنَّ حسبانَهم المذكورَ سببٌ لتماديهم في فنونِ الغيِّ والفساد والضَّلال بأنْ عَمُوا وصمُّوا، وإنَّ ضَلَالهم أعقبَ حسبانَهم من غَيْرِ مهلةٍ؛ لِلْإِسْعَارِ بتَسَابُقِهِم إلى العمَى عَنِ الهدَاية والصَّمم عن سَمَاعِ الحقِّ[2].

بلاغةُ الاستعارةِ في قوله تعالى: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

من لم يَتَبَصَّر الآياتِ، وسدَّ مسمعه عن الحقِّ؛ فهو أعمى وأصمُّ

شُبِّه إعراضُهم عن الهدى بالعمى، وعدمُ انتفاعِهم بما يَسْمَعُونه من أدلَّةِ الحقِّ بالصَّمم، ثم حُذفِ المشبَّه، وصُرِّحَ بالمشبَّه به على طريقِ الاستعارة التَّصريحيَّة التَّبعيَّة، فاستعير العمَى والصَّمم لِلْإِعْرَاضِ عن أدلَّةِ الرَّشاد من رسلِهم وكتبِهم؛ لأنَّ العمى والصَّمم يُوقِعَانِ في الضَّلال عن الطَّريق، ويمنَعَانِ الاستفادةَ مِمَّا شأنُهُ النَّفْعُ، فلمَّا لم يتبصَّروا الآياتِ بأبصارِهم، وسدُّوا مسامعَهم عن

(1) ابن مجاهد، السبعة، ص: 247، والأزهري، معاني القراءات: 1/337، وابن عطية، المحرر الوجيز: 2/220، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/406.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/64.

الإصاخةِ إلى الحقِّ؛ جُعلوا عُمْيًا وصمًّا، وفي هذه الاستعارةِ إيماءٌ إلى انحرافِهِمْ وعصيانهم، وأنَّهم أساؤُوا الأعمالَ وأَفْسَدُوا، ومَنْ وُصفَ بهذه الصِّفات جَدِيرٌ أَلَّا ينتفعَ مِنَ الهدى والحقِّ[1].

نُكْتَةُ تقديم العَمَى عَلَى الصَّمم:

أوَّل ما يعرضُ لِلْمُعْرِضِ عن الحقِّ أَلَّا يُبْصِرَ مَنْ جاءَهُ به مِنْ عندِ اللهِ تعالَى

قُدِّمَ العَمَى على الصَّمِم؛ لأنَّهم كانوا على طريقِ الهدى، ثمَّ أعرضوا عنه، فلمَّا كان أَوَّلُ مَا يَعْرِضُ لِلْمُعْرِضِ عَنِ الشَّرَائِعِ أَلَّا يُبْصِرَ مَنْ أَتَاهُ بِهَا مِنْ عِنْدِ اللهِ؛ بُدِئَ بالعمى، ثُمَّ لَوْ أَبْصَرَهُ لَمْ يَسْمَعْ كَلَامَهُ، فَعَرَضَ لَهُمُ الصَّمَمُ عَنْ كَلَامِهِ[2].

تَوْجِيهُ المتشابه اللَّفظِيِّ:

فَـرْقٌ بـينَ مَـن لـم تـسـبـقْ له الـهـدايـةُ، ومَـنْ سبقتْ له

جاءت في هذه الآية نسبةُ العمى والصَّمم إليهم، وتقديمُ العمى على الصَّمم، وفي سورة محمَّد قال الله تعالى: ﴿أُولَٰئِكَ الَّذِينَ لَعَنَهُمُ اللَّهُ فَأَصَمَّهُمْ وَأَعْمَىٰ أَبْصَارَهُمْ ﴿٢٣﴾﴾ [محمَّد: 23]، والفرق بين الآيتين: أنَّه في سورة المائدة لَمَّا كَانَ اليهودُ قَبْلَ ذَلِكَ عَلَى طَرِيقِ الْهِدَايَةِ، ثُمَّ عَرَضَ لَهُمُ الضَّلَالُ؛ نُسِبَ الْفِعْلُ إِلَيْهِمْ، وَأُسْنِدَ لَهُمْ، وَلَمْ يَأْتِ: (فَأَعْمَاهُمُ اللهُ وَأَصَمَّهُمْ)، وما في سورة محمَّد كان فِيمَنْ لَمْ تَسْبِقْ لَهُ هِدَايَةٌ، ومثله قوله تعالى: ﴿صُمٌّ بُكْمٌ عُمْيٌ فَهُمْ لَا يَرْجِعُونَ ﴿١٨﴾﴾ [البقرة: 18]، فمن لم تسبق له الهداية؛ يُبْدَأُ بذِكْرِ صَمَمِه عن سماع الحقِّ، ثُمَّ عماه عن رؤية الهدى، ومن سبقت له الهداية؛ يُبْدَأُ بذِكْرِ عمَاهُ، ثُمَّ صممه مع نسبةِ الفعلِ إليه لتركه طريقَ الهدى وإعراضه عنه، فكان مِن فصاحةِ اللَّفْظِ إسنَادُ العَمَى والصَّمم - اللَّذين هما عبارة عن الضَّلال - إِلَيْهِم[3].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/277.
(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.
(3) بن عطية، المحرر الوجيز: 2/221، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

دلالة حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

أفاد حرف العطف (ثُمَّ) التَّراخِيَ الزَّمَنِيّ، بمعنى: أَنَّهُمْ تَمَادَوْا في العمَى عن رُؤْيَةِ الهُدَى وأدلَّتِه، وفي الصَّمم عن سماعِ الحقِّ إِلَى أَنْ تَابَ اللهُ عَلَيْهِمْ[1].

مناسبةُ إسنَادِ التَّوبة إلى اللهِ تعالَى في قوله تعالى: ﴿تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾:

أُسْنِدَ الْفِعْلُ الشَّرِيفُ إِلَى اللهِ تَعَالَى فِي قَوْلِهِ: ﴿ثُمَّ تَابَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمۡ﴾، ولم يُسنِده إليهم، فلم يَقُلْ: (ثمَّ تابوا)؛ تجافيًا عنِ التَّصريح بنسبة الخَيْرِ إليهم، وفيه - أيضًا- الإِشْعارُ بإنعام اللهِ عَلَيْهِم، وإظهارُ الاعتناءِ بِهِمْ، ولُطفِهِ تعالَى بِهِمْ بالتَّوبة عَلَيْهِمْ، ثمَّ تمَادِيهم بعدَ الإِنْعَامِ في غيِّهم وضلالِهم، ففيه توبيخٌ شديدٌ.

التَّوبيخ الشَّدِيدُ لمَنْ يُنعمُ اللهُ تعالَى عليْهِ بالتَّوبةِ، ثمَّ يتمادَى في الغيِّ

وإنَّما أشيرَ إلى التَّوبة في ضمنِ بيان توبتِه تعالى عليهم؛ تمهيدًا لبيانِ نَقضِهم إيَّاها بقوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾[2].

دلالة حرف العطف ﴿ثُمَّ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾:

لَمَّا عُطِفَ الكلامُ؛ دلَّ على أَنَّهم عَمُوا وَصَمُّوا مرَّتين، ويَحْتَمِلُ أن تكون ﴿ثُمَّ﴾ هنا: للتَّعبير عن الزِّيادة في التَّمادي في عَمَى اليهودِ المَذْكُورِينَ وصَمَمِهم، ففيه معنى: الاسْتِبْعَادِ، أيْ: عموا وصمُّوا كرَّةً أخرى مع زيادة فيهما؛ للإيذانِ بأَنَّهم عموا، وصمُّوا بأعمالٍ غيرِ الَّتي عموا، وصمُّوا بها أوَّلًا، من عبادةِ العجلِ وغيره، فإنَّ فنونَ الجناياتِ الصادرةِ عنهم لا تكاد تتناهى، ويَحْتَمِلُ أن تكونَ ﴿ثُمَّ﴾ للتَّراخِي في الزَّمان، فيكون المرادُ من قولِه تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ الإشارةَ إلى اليهود في زمنِ عِيسَى أو زمنِ سيِّدنا محمَّدٍ - عليهما الصَّلاة والسَّلام - بكفر بني إسرائيل بِهِمَا، أو أَنَّهُمْ لَمَّا رَضُوا بفعل

فنونُ الجناياتِ الصَّادرةِ عن بني إسرائيل لا تكادُ تَتَنَاهَى

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

(2) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/64.

آبائهم؛ نُسِبَ الفعلُ إليهم، فيكون من قبيل إسنادِ ماهُوَ للآباء إلى الأبناء[1].

براعَة التَّعبير بـ ﴿كَثِيرٌ﴾ في قوله تعالى: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾:

ذهب جمهور المفسِّرين والنُّحاة إلى أنَّ ﴿كَثِيرٌ﴾ بدلُ بَعْضٍ من كلٍّ من فاعل ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، وفي ذكره فوائد[2]:

كـــثـــيرٌ مِـــنَ النَّصارى كانوا عـلى البـاطـلِ، وقـلَّةٌ منهم مَنْ كَانَ على الحقِّ

أُولاهَا: الاحتراس: إذ لو قال: ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، من غيرِ ذكرِ البدلِ؛ لأوهم ذلك أنَّ كلَّهم صاروا كذلك، فإنَّ الإتيانَ بالضَّمير يُفْهَمُ أنَّ ذلك عمَّهم كُلَّهم، فلمَّا قال: ﴿كَثِيرٌ مِّنْهُمْ﴾؛ دلَّ على أنَّ ذلك حاصل للأكثر لا للجميعِ، وأنَّ قلَّةً مِنْهُمْ مَنْ كانَ على الحقِّ.

يـعـاقـبُ الـلـهُ تـعـالى الأمـمَ بـالـذُّنـوبِ؛ إذا كـثُرَتْ، وشاعَتْ فيها

ثانيهَا: أفاد الكلامُ أنَّ عمى البصيرة والختم على السَّمع، لم يكن عامًّا مستغرقًا لكلِّ فرد من أفرادهم، وإنَّما يعاقب الله تعالى الأممَ بالذُّنوب؛ إذا كثُرَت، وشَاعَت فيها؛ لأنَّ العبرةَ بالغالب، والقليل النَّادر لا تأثيرَ لَهُ في الصَّلاح أو الفسادِ العَامِّ.

ثالثهَا: أفاد البدلُ تأكيدَ الأَمْرِ وتقريرَهُ بتكرُّرِ الفاعل؛ إذْ ذُكِر الكثيرُ إجمالًا في ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾، ثمَّ أُعيدَ في قوله: ﴿كَثِيرٌ﴾، فأفادَ تقريرَ إثباتِ العمى والصَّمم لهم؛ لأنَّه أخبرَ عن قومٍ أنَّهم عَمُوا، وصَمُّوا، ثم فسَّر كم صَنَعَ ذلك مِنْهُم.

رابعُهَا: أنَّ مجمُوعَ المُبْدَلِ منْهُ والبدلِ أفاد الإيضاحَ والبيانَ.

خامسُهَا: يَحْتَمِلُ أنْ يكونَ البدلُ ﴿كَثِيرٌ﴾ عائدًا إلى الضَّميرين في ﴿عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ بتَكْرَارِ الفعلين في الموضعين، فإنَّه لمَّا كان مرجعُ الضَّميرين الأخيرين في قولِه: ﴿ثُمَّ عَمُواْ وَصَمُّواْ﴾ هو عينُ مرجعِ الضَّميرينِ الأوَّلينِ في قوله: ﴿فَعَمُواْ وَصَمُّواْ﴾؛ كان الإبدالُ منَ

(1) الرازي، مفاتيح الغيب: 12/407، والقونوي، حاشية القونوي على تفسير البيضاوي: 7/526.

(2) الأخفش، معاني القرآن: 1/286، والرازي، مفاتيح الغيب: 12/407، وأبو حيان، البحر المحيط: 4/328، وأبو السعود، إرشاد العقل السليم: 3/65، ورضا، تفسير المنار: 6/399، وابن عاشور، التحرير والتنوير: 6/279.

الضَّميرين الأخيرين المفيدُ تخصيصًا من عمومِهما؛ مفيدًا تخصيصًا من عمومِ الضَّميرينِ اللَّذينِ قبلَهما بحكمِ المساواة بينَ الضَّمائر؛ إذْ قد اعتبرتْ ضمائرُ أمَّةٍ واحدة، فإنَّ مرجعَ تلك الضَّمائر هو قوله: ﴿بَنِيٓ إِسۡرَٰٓءِيلَ﴾ [المائدة: 70]، ومن الضَّروري: أنَّه لا تخلو أمَّةٌ ضالَّةٌ في كلِّ جيلٍ من وجودِ صالحين فيها، فقدْ كان في المتأخِّرين منهم أمثالُ: عبد اللَّه بنِ سلام، وكان في المتقدِّمينَ الرَّجلانِ اللَّذانِ قال اللَّه في شأنِها: ﴿قَالَ رَجُلَانِ مِنَ ٱلَّذِينَ يَخَافُونَ أَنۡعَمَ ٱللَّهُ عَلَيۡهِمَا ٱدۡخُلُواْ عَلَيۡهِمُ ٱلۡبَابَ﴾ [المائدة: 23]، ويحتمل أن يكونَ البدلُ مِنَ الفعلينِ المُقْتَرِنَيْنِ بالبدلِ، ويكونَ الفعلانِ المذكوران أوَّلًا على معنى الغالبِ والكثيرِ.

سادسُهَا: أجاز بعض النُّحاة والمفسِّرين أن يكون ﴿كَثِيرٌ﴾ هو الفاعلَ لِلْفِعْلِ ﴿وَصَمُّواْ﴾، والواو علامةُ الجمع على لغة بعض العربِ مِنَ الأزْدِ الَّتي يعبِّر النُّحاة عنها بقولِ واحدٍ مِن أهلها؛ إذْ قال: (أكلوني البراغيث)، فيكون مِن قبيل التَّأكيد والتَّقرير.

حسن التَّذييل في قولِه تعالى: ﴿وَٱللَّهُ بَصِيرُۢ بِمَا يَعۡمَلُونَ﴾:

في جملة التَّذييل نكَات لغويَّة وبلاغيَّة:

الله تعالى بصيرٌ بأعمالِنا وبآثارِ أعمالنا

أحدهَا: تحتمل (ما) أن تكون مصدريَّة، فيكون المعنى: (واللَّه بصير بعملهم)، ويلزم منه أن يكون بصيرًا بما يظهر من آثار عَمَلِهم، وتَحْتَمِلُ أن تكون موصولةً، وحُذِفَ العائدُ مِن ﴿يَعۡمَلُونَ﴾؛ لِيفيد العمومَ، أي: واللَّه بصيرٌ بكلِّ أثرٍ من آثار أعمالهم.

ثانيهَا: في جملة التَّذييل تهديدٌ شَديدٌ، لتَعْليق وَصْفِ اللَّه تعالَى بِكَوْنِهِ بَصِيرًا بعملِهم، أو بِمَا يظهر مِن آثارِ عَمَلِهم.

ثالثهَا: ناسبَ خَتمُ الآيةِ بِهذهِ الجُملةِ المُشتملةِ على بصيرٍ؛ إذْ تقدَّمَ قبلَهُ ﴿فَعَمُواْ﴾[1].

(1) أبو حيان، البحر المحيط: 4/328.

رابعُهَا: لَمَّا كان كفرُ النَّصارى مستمرًّا، والمعنَى: واللهُ بصيرٌ بما عَمِلوا في الماضي، كان لِلتَّعْبِير بصيغَةِ الْمُضَارِعِ نكتةُ حِكايةِ الحالِ الماضية استحضارًا لِصورةِ أعمالهم في مَاضِيهم، وتمثيلِها لهم ولغَيْرِهم في حَاضِرِهِم ورعايةً لتناسُبِ الْفَوَاصِل، ويَحْتَمِلُ أَن يَكُونَ التَّعبيرُ بِصيغَةِ الْمُضَارِعِ للإشارة إلى كَيْدِهِم المستمرِّ لرسولِ اللهِ محمَّدٍ ﷺ ولدينِه وشريعتِه، والمَعْنَى: سَيُعَاقِبُهُم اللهُ تعالى على ذلك بِمِثْلِ مَا عَاقبَهم علَى مَا قبلَه[1].

خَامِسُهَا: أشارَتْ جُملة التَّذييل إلى بطلان حُسْبانهم المذكور ووقوع العذاب مِنْ حَيْثُ لَمْ يَحْتَسِبُوا إشارةً إجماليَّةً، اكتُفيَ بها تعويلًا على ما فُصِّل نوع تفصيلٍ في سُورة بَنِي إسرائيلَ، والمعنى: حسبوا ألَّا يصيبَهم عذابٌ ففعلوا ما فعلوا مِن الجنايات العظيمة المستوجِبَةِ لأشدِّ العقوباتِ، واللهُ بصيرٌ بتفاصيلِها، فكيف لا يُؤَاخِذُهم بِهَا، ومِنْ أينَ لهم ذلكَ الحسبانُ الباطل[2]؟

سَادِسُهَا: لَمَّا كانَتْ جُمْلَةُ التَّذييلِ على مَعْنَى العمومِ؛ كانت بمنزِلَةِ الْمَثَلِ في حكايتِها والتَّمثُّلِ بها.

(1) رضا، تفسير المنار: 6/399.

(2) أبو السعود، إرشاد العقل السليم: 5/63.

عنوان الكتاب:
موسوعة التفسير البلاغي، المجلد التاسع، سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106
مجمع القرآن الكريم بالشارقة، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
*
التنفيذ والنشر: منشورات القاسمي، الشارقة، دولة الإمارات العربية المتحدة
سنة الطبع: 1444هـ - 2023م
©حقوق الطبع والنشر محفوظة لمنشورات القاسمي
الطبعة الأولى: 2023م
*
الفهرسة الوصفية أثناء النشر:
مكتبة الشارقة العامة، هيئة الشارقة للكتاب، الشارقة، الإمارات العربية المتحدة

227.366
م ق. ت
التفسير البلاغي للقرآن: سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106 [إشراف مجمع القرآن الكريم، قسم الدراسات والبحوث ؛ المدير العلمي امحمد صافي المستغانمي].-
الشارقة، الإمارات العربية المتحدة : منشورات القاسمي، 2023.
مج. 9 ، 804 صفحة ؛ 24x17 سم.
ردمك : 978-9948-798-61-3
يشتمل على ارجاعات ببليوجرافية.
مج. 9 : سورة المائدة من الآية 26 إلى الآية 106.
1-القرآن - تفاسير نحوية 2- القرآن، بديع 3- القرآن، بلاغة 4- القرآن - سور وآيات 5- القرآن- ألفاظ أ- العنوان ب - مجمع القرآن الكريم (الشارقة، الإمارات العربية المتحدة).
قسم الدراسات والبحوث ج- المستغانمي، امحمد صافي

الترقيم الدولي : 978-9948-798-61-3
*
إذن طباعة رقم: MC-03-01-3504784 بتاريخ 2023/03/27م،
مكتب تنظيم الإعلام، وزارة الثقافة والشباب، الإمارات العربية المتحدة
*
الفئة العمرية : E
«تم تصنيف وتحديد الفئة العمرية التي تلائم محتوى الكتب وفقاً لنظام التصنيف العمري الصادر عن المجلس الوطني للإعلام»
*
الطباعة: AL Bony Printing Press - Sharjah, UAE
الإخراج الفني: عاصم محمد زكي «النجار»